دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

التاريخ.. لا يغفر الذنوب

هذا الركام الضبابى ليس العروبة
هذا ضريح.. تمدد من آخر المتوسط حتى الخليج

الشاعر محمد سليمان

obeikan.com

obeikan.com

وفى ظل المناخ العربى العام ـ والأمواج متلاطمة والعواصف تهب كاسحة على المنطقة ـ وقبل أن يكون التساؤل حائرا حول دور مصر.. كان التساؤل القائم وبمشاعر القلق والخوف والإحباط: حول (معنى) كل ما يجرى ويحدث على الساحة العربية؟!

وبالطبع لم يكن دور مصر بعيدا عن كتيبة التساؤلات التى تحيط بالواقع العربى..بل بدت تلك التساؤلات الحائرة والقلقة وفى جانب كبير منها وكأنها موجهة للبحث عن دور مصر فى مواجهة كل ما يجرى ويحدث!!

وفى هذه الموسوعة من الأحوال العربية كان المشهد العراقى ـ قبل وأثناء وبعد السطو المسلح الأنجلو أمريكى فى ربيع ٢٠٠٣ ـ شاهدا على تشتت الفكر والفعل العربى.. شاهدا على أن هذه الأمة أصبحت تعيش جغرافيا داخل منطقة نفوذ أمريكية، وأن هناك صورا متعددة من أشكال الوصاية والهيمنة!! وشاهد على أن الفكر السياسى العربى قد استقر فى السنوات الأخيرة على منهجية عمل تقول: ماذا تريد أمريكا حتى يفعل العرب ما تريد!؟!

وكانت صورة الحركة على الساحة العربية ـ قبل أيام من الغزو الأمريكى للعراق.. وخلال الحرب ـ تكشف عن مواقف ـ ربما كانت غير مسبوقة فى التاريخ العربى ـ وهى تساند صراحة دون خجل حركة العدوان الأمريكى المسلح.. وما حدث كان أشبه بتحالف حرب ضد دولة عربية.. وكانت القواعد الأمريكية الضخمة ومراكز للحرب الجوية فى دول عربية خليجية.. تستقبل طلائع الحشود الأمريكية لغزو العراق.. وانقسمت المواقف العربية الأخرى بين الرفض بالصمت.. أو

اللامبالاة.. أو المناشدة "الخجولة" لضبط النفس وفى محاولة لإبراء الذمة!! أو التحذير من تداعيات العدوان على العراق.. وكان هناك فعلا مذموم عبرت عنه مواقف "التشفى" من دولة عربية ومن نظامها الحاكم!!

. . . .

. . . .

وصورة المناخ الذى جرى تحته الإعداد للغزو المسلح ـ قد رسمها الجنرال ويسلى كلارك فى كتابه (كسب الحروب الحديثة: العراق، والإرهاب، والإمبراطورية الأمريكية) والجنرال كلارك واحد من رجال المؤسسة العسكرية الأمريكية وعلى صلة وثيقة بوزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون" ونافذ إلى ما وراء أسوارها.. والصورة التى يرسمها الجنرال كلارك فى كتابه مستندا على معلومات من مصادرها العليمة، توضح أن السياسة الأمريكية الحالية لتغيير الشرق الأوسط، والتى بدأت بالحرب ضد العراق، وتحت مسمى الحرب عل الإرهاب فى العالم، هى سياسة كانت مجهزة من قبل أن يقع الهجوم الإرهابى فى الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ويقصد "ويسلى كلارك" أن الأهداف قد سبقت سياسة تعبر عن فكر أيديولوجى لجماعة المحافظين الجدد الذين تولوا صياغة توجهات السياسة الخارجية والعسكرية فى إدارة الرئيس الأمريكى الأسبق جورج دبليو بوش، وهو الفكر الذى يتضمن أولا هيمنة أمريكية على العالم تسيطر على موارد الثروة (البترول) وعلى مواقع النفوذ جغرافيا وسياسيا، تبدأ من السيطرة الإقليمية على الشرق الأوسط من خلال حرب على دولة تكون هى الحلقة الأضعف فى المنطقة ممثلة فى حكم

يواجه معارضة من شعبه والعالم، ويتضمن ثانيا ارتباطا تنظيميا بإسرائيل والتمكين لها من هيمنة بالوكالة على المنطقة، بعد أن تكون صدمة الحرب فى العراق قد أثمرت فى خلق حالة من الخوف على أقل تقدير، أو الانكسار النفسى والسياسى على أكثر تقدير، مما يسهل إعادة رسم خريطة المنطقة ليكون لإسرائيل فيها وضع محورى فى علاقاتها المتغيرة!!

ويقول الجنرال كلارك أن التخطيط للحرب على العراق كان مختلفا عما اعتاده العسكريون بالنسبة لأى حرب يدخلونها، فالخطط الرئيسية العامة لهذه الحرب كانت قد وضعت قبل عشر سنوات، ثم تم التخطيط التفصيلى لها فى يناير ٢٠٠٢، فى واحد من سلسلة اجتماعات رأسها وزير الدفاع "السابق" رامسفيلد وحضرها الجنرال تومى فرانكس الذى تولى قيادة مسرح العمليات، وسبق ذلك بداية عملية التخطيط منذ نوفمبر ٢٠٠١ مع توجيه سياسى جاء من أعلى المستويات فى الحكومة.. وبعد أن ألقى الرئيس بوش خطابه "حالة الاتحاد" أمام الكونجرس فى يناير عام ٢٠٠٢، كانت السياسة الخاصة بالحرب قد تحددت، وأصبحنا على مسار الحرب ضد العراق.. وعندما كنت فى البنتاجون فى شهر نوفمبر ٢٠٠١ قال لى واحد من هيئة كبار الضباط : أننا مازلنا على الطريق نحو ضرب العراق، لكن هناك المزيد، وهو ما جرت مناقشته كجزء من خطة لحملة تنفذ على مدى خمس سنوات، وتشمل سبع دول، تبدأ بالعراق، ثم سوريا، ثم لبنان، وليبيا وإيران والصومال والسودان!! وفى موجة الانفعال بإسقاط صدام حسين كانت الأحاديث فى واشنطن فى أبريل ٢٠٠٣ تتحدث عن الإمبراطورية الأمريكية، والفكرة ذاتها مضللة، وأن صورة القوات الأمريكية باعتبارها قلب الإمبراطورية الجديدة ـ قوة التحرير التى تجتاح الشرق الأوسط وتزيح

أنظمة الحكم المناصرة للإرهاب، وتقيم ديـمقراطيات على النمط الغربى ـ إنما هى رؤية مضمحلة!!

. . . . .

وهذه هى الحقيقة. . وإن كانت ليست كاملة بالطبع!!

والشاهد. . أن الكل يدور ويلف حول حقيقـة فرضتها عملية السطو المسلح الأمريكى على العراق. . حقيقـة التنكيل بالعراق، وتزايد عمليات الصراع الطائفى وتصفية الحسابات، والتى يجب أن تنتهى ـ حسب تقرير أعده باحثون إسرائيليون بمركز هرتزليا ـ بتقسيم العراق، وباعتبار أن ذلك أفضل وسيلة لخدمة الأهداف الأمريكيـة والإسرائيلية فى المنطقة، وأنه فى حال لم يسفر الاحتلال الأمريكى للعراق عن تقسيم هذا البلد فإنه يمكن اعتبار الحـرب الأمريكية فاشلة مـن أساسها ولم تحقق أهدافـها، ولذلك يتوجب الـقضاء على الوحـدة الجغرافية للـعراق وتسهيل إقـامة دويلات طائفـية، وإضعاف الوجـود السنى فى العـراق وضرب حركات المقـاومة السنية!!

وهكذا يفكرون. .

وفى هذه الأجواء. . نحن نركز على جزء من الحقـيقة ونترك الحقيقة كاملة!!

وأغلب الظن. . أن المشـهد العراقى الراهن حافل بعـشرات الأسباب التى تجعلنا نقيم للمجهول ألف حساب وحساب!!

ومع هذا الانـدفاع نحـو المجهـول. . كانـت التسـاؤلات عن "دور مصر" وسط دوامات من أمواج متلاطمة تثـيرها مطامع ومصالح إقليمية

ودولية.. مطامع وأهداف أمريكية لا تقبل التراجع.. ومواقف عربية لا تستطيع الإخلال بمصالح ومطالب "الصديق الأمريكى" ولا تقوى على الرفض أو حتى التردد وبعد أن ارتبطت المصائر بعقود اتفاقيات أمنية وامتيازات عسكرية وهى ترى فى الولايات المتحدة الأمريكية السند والمدد الوحيد!! وإلى جانب دوامة التلوث السياسى والطائفى داخل العراق.. هناك صدام وصراعات المصالح "الضيقة" المذهبية والعرقية.. واختلطت أشياء كثيرة.. الخاص مع العام.. وأصول القضايا مع فروعها.. وأطل شبح بدا مرعبا أمام الجميع (الحرب الأهلية الطائفية) تدفع مقدماتها بالجثث مجهولة الهوية على قارعة الطرق.. وبدا واضحا أن هناك سياقا عاما يصل بين الحوادث والتطورات داخل العراق، وما بين المطامح والمطامع.. وأن الحوادث والتطورات مجرد مشاهد ساخنة أو "موجات همجية" فى سلسلة الصراع على المنطقة وفيها!!

وكان واضحا منذ البداية أن حركة الدور المصرى ـ الجهد السياسى والدبلوماسى ـ يتحسب جيدا لتداعيات الجيوش الزاحفة على الإقليم العربى، وإلى جانب الأفكار الزاحفة قبل الجيوش وبعدها.. وأتصور أن مصر وفى تقديرها للموقف كانت تدرك مطامع قوة متحفزة للسيادة على المنطقة، والسيطرة على مصائر ومقادير، وأن جهد الأمة وطاقاتها أصبح مشتتا، وأن المزاج السائد غير مستعد لمراجعة حسابات ما يحدث ويجرى.. وفى هذا الجو المفعم بخيبة الأمل كانت كل الأنظار ـ تقريبا ـ تحاول أن تهرب مما حولها!!

والحاصل أن ساحة الحركة أمام الدور المصرى كانت محفوفة فى كثير من جوانبها بنوع من ذلك "الهروب العربى" وفى منطقة دخلت فى

نطاق النفوذ الأمريكى.. منطقة مزدحمة بالشك ومعرضة طول الوقت للمفاجآت.. وقد اتسعت الشقوق والتصدعات بين المواقف التى بدت صورة معظمها "سيريالية" أقرب للعبثية والعشوائية وأصبح سد الفجوات بينها جهدا ضائعا.. وكأن الأمر الواقع أصبح واقعا وخاضعا لمركبات الاستعلاء التى تحكم تصرفات دولة عظمى (أمريكا).. وفى نفس الوقت كان غائبا ـ وعن قصد مقصود ـ وضع مصالح مصر ومكانتها فى المسار الصحيح!!

وهكذا.. كانت رؤية البعض أن الجهد السياسى والدبلوماسى المصرى لا يختلف عن جهد أى دولة عربية أخرى رغم أن المسئوليات الكبرى ملقاة على عاتق الدولة القائدة ودورها التاريخى فى المنطقة وما حولها!!